الفصل العاشر

الغرب وحواره المشروط مع الإسلام
لغة الحوار في الإسلام

الغرب وحواره المشروط مع الإسلام

يصر بعض المثقفين الغربيين على إدخال الحوار بين الحضارات القديمة والحديثة، بكل ما تحتويه من منجزات علمية ونظرية، إلى صومعة الصدام، بدلاً من إدخاله إلى قاعات الحوار.

والحجة الأساسية التي يتذرعون بها في سبيل تعطيل الحوار مع الشرق الذي يمثله الإسلام، مثلما تمثل المسيحية الغرب، افتقاده لجملة الشروط التي يضعونها أمامه، ولعل أهمها على الإطلاق، شرط الديمقراطية والتي من خلالها تتحدد شروطهم الأخرى، سواء في استئناف الحوار أو السير قدمًا في طريق الصدام الحضاري.

في الواقع، أن شرط الديمقراطية، يعد شرطًا أساسيًا لأي حوار، ولا يمكن اعتباره ثانويًا، وهذا ليس تبريرًا لجملة الشروط الغربية من الحوار مع الإسلام، لأنه بغير الديمقراطية لا يكون للحوار أي دلالة على مدى جديته وفاعليته.

إن الديمقراطية، بطبيعة الحال، ليست شرطًا لأي حوار مع الغرب، لأنه سيبدو حينها شرطًا تعجيزيًا يراه البعض كسبيل للهروب من استحقاقات الحوار، التي باتت تتطلب أولاً، إعادة ترتيب البيت الإسلامي من الداخل والخارج، قبل الولوج في أي حوار مستقبلي، بحيث يصار إلى ما يشبه عملية المراجعة السياسية والفكرية الشاملة لمسيرة ١٤٠٠ سنة هي عمر الإسلام.

والغرض الأساسي من تلك المراجعة الشاملة، إتاحة المجال أمام الأجيال المعاصرة، لنقد الطروحات الإسلامية المعاصرة، إن في

المجال السياسي (تجربة الإسلام السياسي) أو في المجال الاقتصادي والاجتماعي، وبالتالي إعادة فهم الإسلام، كجسد واحد، بروح ملؤها الانفتاح والتسامح، بعيدًا عن مفردات الماضي، وما يشوبها من تعصب وتطرف أعمى، يضع العصي في عجلات الحوار مع الآخر.

والجدير بالملاحظة، أن الحوار المطلوب تطبيقه جرت قولبته وفقًا لرؤى الغرب بما يحقق مصالحه السياسية أولاً، وهذا ليس شرطًا جديدًا، وإنما تقييمًا عمليًا لموازين القوى بين الشرق والغرب، بمعنى أن الحوار بات خاضعًا بصورة مسبقة لتلك الموازين، بحيث لا يمكن تجريده منها، بالإضافة إلى أن الحوار، لا يمكن أن يتم من دون لغة حاضنة وراعية له، وهذا شرط آخر يحتم استخدام لغة الغرب سبيلاً للحوار، وليس لغة الشرق.

الدافع الأساسي وراء استخدام لغة الغرب، كأداة فاعلة من أدوات الحوار، إن لغة الشرق تشوبها الكثير من العيوب والنواقص، ولا نتحدث هنا عن الجوانب القواعدية، بل عن الجوانب السياسية الموصوفة على أنها لغة تحض على العنف، التي تلازم الإسلام، والتي تمتلئ بها نصوص القرآن، إن ظاهرًا أو تفسيرًا.

إن ما يتعرض له الغرب من عمليات تفجيرية طائشة بين فترة وأخرى، لا يقتصر اتهامه فيها لجماعات إسلامية بعينها، بل يسعى إلى تعميم اتهاماته ليؤمّن مصالحه وليحقق غرضين جوهريين في آن معًا:

الأول، الثأر من بعض الدول (أفغانستان) والجماعات (طالبان – القاعدة) وتصفية ما تبقى معها من حسابات قديمة طويت بفعل ظروف قاهرة.

والثاني، تنميط التفكير الإسلامي وإخضاعه للثقافة الغربية قسرًا والوصول به إلى الكونية أو العالمية التي تريد.

ويزداد الحوار صدامًا بين الشرق والغرب، نتيجة الخلط المتعمد بين أطراف الحوار، فكل طرف أضحى مخولاً بالحديث نيابة عن الآخر، بمعنى أن السياسي انتهك حرمة الديني، والديني تطفل على الأيديولوجي، وسببه الصراع العميق بين السياسي والديني في الشرق بصفة عامة، لتعذر الفصل بينهما، وبذلك تعمقت رؤية الغرب سوداوية في حواره مع الشرق الإسلامي واعتباره بؤرة من بؤر التطرف الخطيرة.

وبالعودة إلى أحد أهم شروط الحوار المطلوب غربيًا، ألا وهو شرط الديمقراطية، يتضح بجلاء، أن الغربيين نجحوا في استثمار هذا الشرط العصيب لإملاء ما لديهم من شروط ثانوية للحوار، بدلاً من أن تكون موضوعًا له.

فشرط الديمقراطية يكاد أن يكون مفجرًا لصدامات هوجاء بين الشرق والغرب، والمعروف أن فكرة الديمقراطية صناعة غربية صرفة، وهي من اختصاص النظم السياسية لا الإقطاعية – العائلية أو العسكرية – الكولونيالية، وهي نظم (السياسية) يندر وجودها في الشرق، ما أعطى الغربيين الشرط الأكبر والسبب الكافي للاستعلاء في حوارهم مع الشرق، والزعم بأن الإسلام لم يعرف الديمقراطية قط، كما أنه لا يشجع عليها.

القول بأن الإسلام يخلو من الديمقراطية، يقابله في الجهة الأخرى خلو المسيحية واليهودية من الديمقراطية أيضًا، باعتراف الغربيين أنفسهم.

فلم تبشر المسيحية بالديمقراطية يومًا، وبالتالي إن ما يسمى بحوار الحضارات أو صدامها، ما هو إلا حوار بين سياسات ومصالح دولية تتصارع على بسط نفوذها في مناطق واسعة من العالم، بحيث تغدو الحضارات مرهونة بحوار السياسات قبل كل

شيء، فإما أن تتصادم، في حال تصادمت المصالح، أو أن تتلاقى حين يتم الاتفاق.

تتلخص أهداف الغرب من وراء أي حوار يسعى إليه مع الإسلام، بإفساح المجال أمام القيم الغربية التي لم تجد لها منفذًا للسريان في عروق الشرق، وهذه القيم تتمثل بالديمقراطية الغربية التي تتعارض مع عقائده، واللغة المتعارضة أصلاً مع تراثه.

ونظرًا لصعوبة تحقيق تلك الأهداف بالحد الأدنى، فإن أي حوار بين الشرق والغرب، قد يستهدف العقائد الدينية بفرض تغييرها، وفرض عقائد سياسية تتجاوب مع شروط الغرب وتطلعاته المستقبلية.

لغة الحوار في الإسلام

بات البحث عن لغة حوار في الإسلام ضرورة يمليها التحدي الذي يمثله الغرب، فإذا لم يتم العثور على تلك اللغة المعاصرة في قاموس الإسلام، وهي بالطبع ليست لغة القرآن أو الحديث، وإن كانت مستوحاة منها، فإن البديل الجاهز هو لغة الغرب بكل قيمها ومبادئها.

نقول ليست لغة القرآن، لأن في القرآن أحكامًا وشرائع جميعها يرتبط بالسماء والوحي، ولا يمكن معها مخاطبة العقل الغربي، بما هو عقل مادي تجريبي، لا يقنع ولا يؤمن، إلا بما هو موجود أمامه من معطيات ووقائع، فإذا ما كان الحوار المرتجى معه حوارًا دينيًا، فإن الفشل سيكون نتيجته النهائية، في ظل عدم اعتراف كل طرف بعقائد وشرائع الطرف الآخر، ونقصد به، الاعتراف العملي، إن في القرآن أو الأناجيل أو التوراة، وليس ذلك الاعتراف الشفهي والمبني على قاعدة عريضة من التسامح والتآخي، والظاهر في اللقاءات الكبرى بين رجال الدين المسلمين والمسحيين واليهود، إثر كل مؤتمر أو حوار.

ومن حقنا أن نسأل، لماذا البديل دائمًا هو لغة الغرب، إن كانت لغته أصلاً تسعى إلى تغيير العقائد الدينية واستبدالها بأخرى سياسية تتجاوب مع تطلعاته؟.

الإجابة عن هذا السؤال، تقتضي منا تحديد نوع الحوار المطلوب من جانب الغرب أولاً، قبل أن نغوص في تحديد شروطه على

أساس أنها مرتبطة بتوفر الديمقراطية، ولطالما كانت الديمقراطية، أحد أهم شروط هذا الحوار، فإنه سيغدو هنا على هيئة حوار ديني، بين الشرق والغرب، وبين الإسلام والمسيحية، فشرط الديمقراطية، وكما أشرنا آنفًا، لا يتوفر في الإسلام ولا في المسيحية، باعتبار أن الأديان لا تبشر بالديمقراطية كعقيدة سياسية، قدر ما تبشر بعقائدها الدينية، وهذا ما يؤكد مرة أخرى، أن الحوار في أساسه سياسي، وإن تراءى للبعض بصيغة حوار ديني بين الإسلام والغرب.

إن الحوار السياسي، بات يستدعي البحث عن اللغة المناسبة لدى الإسلام، وهي غير تلك اللغة الموجودة في القرآن، كما سبق أن أكدنا.

لغة عصرية قوامها العقل والمنطق، وليس العنف أو الإرهاب، فتلك اللغة إذا ما استخدمها المسلمون في حوارهم مع الغرب، لا تعني البتة تخليهم عن دينهم وكتابهم، باعتبار أن الحجة التي تقوم عليها لغة الغرب أقوى وأنجع، ودائمًا ما تطرح نفسها كبديل عن لغة المسلمين، فمقوماتها السياسية حاضرة بكل قوة من خلال حفاظها على جملة القيم والمبادئ، التي وإن تعارضت مع مبادئ المسلمين، إلا أنها تظل نفعية تسعى وراء مصالحها اليوم وفي المستقبل.

وما يعيق الحوار بين الشرق والغرب، ليس الدين كما يبدو من جانب المسلمين، بل الاختلاف العميق في تحديد أولويات هذا الحوار، فظاهره يبدو على هيئة حوار ديني كما يريد المسلمون، أما باطنه، فيبدو على هيئة حوار سياسي بما تمليه الرغبة لدى الغرب.

ولئن كانت الديمقراطية بين المتحاورين، أهم شروط الحوار، وأبرز العوامل المؤدية إلى نجاحه، فإن غيابها في الشرق بعامة، ولدى المسلمين بخاصة، لن يؤدي إلى استعلاء الغرب في حواره

السياسي مع الشرق، بل سيوسع من المسافة الفاصلة بينهما، وسيزيد في الوقت نفسه، من حجم الهوة السحيقة، وهو الأمر الذي سيدفع المسلمين مستقبلاً إلى تقبل القيم الغربية وتبنيها الكامل، بكل ما تنطوي عليه من تجارب، قد لا تتناسب مع موروثهم الديني والاجتماعي في ضوء التقهقر المريع، الذي وصلت إليه المجتمعات الإسلامية على مختلف الأصعدة، ومقارنتها مع ما وصلت إليه نظيرتها الغربية.

من هنا، فإن الديمقراطية، باتت الشرط الأساسي لأي حوار سياسي بين الشرق الذي يمثله المسلمون، والغرب الذي تمثله جملة المصالح السياسية والاقتصادية، من دون أن تمثله المسيحية إلا ما ندر.

كما أن الحوار السياسي، يستحيل أن يغدو على هيئة حوار حضاري، ليس لأن الإسلام يخلو من الحضارة، ولا لأن المصالح والصراعات السياسية، تجعل من لفظ الحضارة مصطلحًا خاويًا لا يتمثل وجوده إلا في القواميس، إنما لأن تاريخ الحوار بين الشرق والغرب، يؤكد على سياسيته، وينفي دينيته.

فإذا ما كانت الديمقراطية، أداة هذا الحوار، وهو ما ينبغي أن يكون عليه، فإنه ومن دون شك، حوار بناء، يسعى إلى خير الإنسانية، أما إذا كانت القوة هي لغته، فإن ذلك يعيدنا إلى الماضي، قبل مئات السنين، بل وآلاف السنين، حيث الكلمة للأقوى.

وبكل الأحوال، فإن الغرب لم يكن ضعيفًا في أي مرحلة تاريخية، كحال ضعف الشرق الآن، فلكي يكون حوارًا متوازنًا في ظل اختلال موازين القوى، لا بد أن تلغى شروطه، وإن كانت تتصل بالديمقراطية التي يصر عليها الغرب، وبالقوة التي يحاجج عليها الشرق.

فإلغاء الحوار، وإن لم يكن متوازنًا، يعني استمرار الصراع إلى ما لا نهاية، فالقصور الحاصل في مدارك الشرق، بأن الغرب لا يحاوره سوى بلغة القهر والقوة والاحتلال، وكذلك فإن اشتراطات الغرب، المتمثلة بالديمقراطية والإصلاح المتعثر تحقيقه إلى ما هنالك من جملة تعديلات اجتماعية، تعد من أبرز سمات الشرق، لن تترك مجالاً لأي حوار سياسي، من شأنه أن يحد من حالة الاستقطاب الحاد بين الشرق والغرب على أقل تقدير، لا سيما في ظل فشل الحوار الديني.